من بيننا

أخرج (أكرم) منامته من السيارة، ووضعها على الأرض بجوار مجموعة الحطب، التي اقتطعها منذ قليل، نظر له (سيف) قائلًا:

ـ أين خاصَّتي يا فتى؟

ابتسم له (أكرم) قائلًا:

ـ داخل السيارة، أحضرها بنفسك.

تطلَّع له (سيف) في حنق ورد قائلًا:

ـ ولمَ لمْ تُحضِرها معك؟ كم أنْتَ سخيف!!

ابتسم (أكرم) ثم قال:

ـ لأرى ملامح وجهك المكفهرة هذه، يا غضبان.

تابعه (سيف) في صمت، وهو عائد إلى السيارة ليختفي دقائق، ثم يظهر حاملًا معه منامته ويرمي بها أمامه ضاحكًا.. اتجه (سيف) إلى الحطب، وأحضر بضعًا منها متجاهلًا ما فعله (أكرم)، ووضعها بجوار الشعلة التي أضاءها، هما بحاجة للدفء والنار، وسط الظلام الحالك،

فقد اعتادا على التخييم في غابة المعمورة مرة كل عام، وهذه أول ليلة لهما هذا العام، ناداه (أكرم):

ـ أأحضر لكَ بعض الشاي؟

أجابه باقتضابٍ:

ـ أجل.

تابعه (أكرم) وهو يبتسم من ملامح صديقه، واقتضابه في الحوار، كم يحب أنْ يضايقه، ويجد في ذلك متعة، فصداقتهما منذ كانا في التاسعة، صداقة عمر.

جلس كل منهما على طرف من وهج النيران، وقد جهَّزا منامتيهما بجوار الخيمة.. يشاهدان احتراق الحطب وغليان البراد من فوقه، أحضر (أكرم) الكوبين، وجهزهما بالسكر والشاي، وما أنْ أطلق البراد صفارته حتى سكب فيهما الماء، سرت لسعة من البرد في أوصالهما في ذات اللحظة مع هبَّة رياح صيفية، وبدا لهما كم هو شديد احتياجهما للشاي!.. جلسا يحتسيان في هدوء بدون كلام، وما قاطعهما سوى عواء ذئب جاء من بعيد.. قال (سيف):

ـ صوته بعيد، ولكن الحذر مطلوب، أسرِع في تناول الشاي، وأرى أنْ نبيت الليلة في السيارة.

قال (أكرم) متعجبًا:

ـ ماذا؟ وهل هذا يصبح تخييمًا؟ لمْ نفعلها من قَبل!

رد (سيف):

ـ صدري منقبِض، فلنفعلها الليلة فقط.

نظر له (أكرم) في تحدٍ:

ـ لا، بل سنبيت كما اعتدنا كل عام.

عاد الصوت يعلو من جديد، فاستشعر (سيف) قربه، وقال سريعًا:

ـ لا مجال للعناد (أكرم)، أرجوك.

تمعَّن (أكرم) في عيني صديقه، فشاهد الخوف فيهما، لمْ يعهده كذلك من قَبل، صمت قليلًا، ثم قال:

ـ حسنًا عزيزي، لنفعلها هذه المرة، ولكن على شرط أنْ تقضب حاجبيك مرة أخرى!

زال القلق من عيني (سيف)، والتقط حجارة من جواره وقذفها بِاتِّجَاهِ صديقه مازحًا، تحاشاها (أكرم) بحركة خاطفة سريعة، وضحك على مزاح صديقه الحميم.

كَم هي غنية أرواحنا بمَن يفهمها ويحتويها في أسفارها المتقلِّبة.. عندما يُسلب منا هدوء العَقل، ويتسلل إلينا خِلسة الخوف والضجر، وننحصر في زوايا التخبُّط.. ثرية هي قلوبنا بأشباهها.

أغلق (أكرم) باب سيارته (الفورد ماستر) الكبيرة، وهو يتابع صديقه ينام على السرير الوحيد فيها.. فبدأ في تجهيز فِراشه في الأرضيَّة ونام عليها، وهو يقول لصديقه:

ـ بسببك أنام الليلة على غير ما انتظرت، لنا شأن آخر بالغد، وعقابك أيضًا جاهز.

نظر إليه (سيف)، وقال في دهشة:

ـ عقاب؟!

رد عليه (أكرم)، وهو يقاوم النوم:

ـ أجل، أتظنني قطعت مائتي كيلو متر، لمدة ساعتين ونصف، وتركت (كوثر) والبنات، حتى أنام في السيارة؟!

أجابه (سيف):

ـ ما العِقَابُ إذًا؟

ـ سأُخفيكَ في الغابة.

قالها (أكرم) والحروف تخرج منه ثقيلة إيذانًا عن استسلامه للنوم.

فلمَّا فتح عينيه، نظر حيث السرير، فوجده فارغًا من صديقه، والفراش غير مرتب؛ هز رأسه في استفاقة، واعتدل، فشاهد الضياء يدخل للسيارة من الزجاج، إيذانًا بحلول الصباح.

نادى بصوت متعَب:

ـ سيف.. سيف.

لم يرد عليه، التفت يُمنة ويُسرة، ونادى:

ـ سيف.. أين أنت؟ سيف.

شاهَد الأغراض كلها في مكانها حتى هاتفه المحمول، وهاتف سيف مكانهما.

فتح باب السيارة، فإذا موقد النار قد خمد، وكل شيء كما تركاه بالأمس، ولا أثر لصديقه.

انتابه القلق الشديد، فليس من عادته أنْ يخرج لوحده، بل بالعكس، الليلة الماضية كان خائفًا بشكل واضح على غير المعتاد.. نادى مجددًا:

ـ سيف كف عنك هذا المزاح.

لم يجبه أحد، فأخذ القرار بالبحث عنه في الجوار.

حمل مسدسه، وأغلق السيارة، وعلّق على زجاجها ورقة كتب عليها..

ـ «غَادَرْتُ للغابة بَحْثًا عَنْكَ، إذا ما عدتَ، لا تتحرك حتى أعود»

بدأ السير بحذر بين الأشجار، وفي يده المسدس، وهو ينادي على سيف مرارًا، غير أنَّه ما من مجيب، الشمس تشتد في السماء، والغابة مليئة بأشجار بلوط الفلين والصنوبريات والأكاسيا، فغابة المعمورة بالمغرب واحدة من أكبر الغابات الفلينية في العالم، كان يبحث والقلق يعيث في قلبه ودمه.. أين ذهب صديقه؟ وكيف لم يشعر به؟ لم يصدُر من سيف مثل هذا التصرف منذ بدآ التخييم منذ ستة عشر عامًا، كانت أول رحلة لهما مع الكشّافة في الثانوية؛ ومن يومها وحتى بعد انقطاعهما عن الكشافة، صارا يخيّمان معًا لأسبوع على الأقل كل عام.

زلَّت قدمه وهو منهمك في التفكير فسقط من على حافة، لم ينتبه لها فكان السقوط قويًا؛ أصيبت قدمه اليمنى بالالتواء، فصرخ من شدة الألم، غير أنَّه استجمع قواه ونهض سريعًا يبحث عن مسدسه الذي سقط منه فلم يجده.

أي صباح هذا بكل هذه الغرابئيات.. مالذي يحدث؟ تحرك يجر قدمه المصابة وهو يبحث بعينيه عن مسدسه وصديقه، ثم انتبه أنَّ الأشجار حوله قد قصُرت واختلفت فما عادت بِارْتِفَاعِ الصنوبر والبلوط، نادى على صديقه فكان مجيبه الصدى، قرر التوقفَ لكي يستريح فقد انهكه الظمأ والتعب، ولسوء تقديره لم يحضِر معه حتى زجاجة ماء، نظر خلفه وأدرك أنَّه ابتعد كثيرًا عن مكانهما، أي مأزق هذا؟ فهو لم يصطحب

معه حتى خريطة أو حزمة إشعال، كل ما كان معه مسدسه الذي فقده في السقوط، لطالما كان لا يُحسن التصرف مثلما يفعل (سيف) قال بصوت عالٍ خرج من صدره بثقله:

ـ أين أنت يا (سيف)؟

أحس بشيء يضربه على رأسه، فسقط فاقدًا لحظتها الوعي.

فتح (أكرم) عينيه فوجد أمامه وجه أسمر البشرة بعينين سوداوين جاحظتين مرسوم عليه رسومات غريبة بالأبيض؛ أصابه الهلع، حاول تحريك جسمه لكنَّه أدرك للحظة أنه مكبل في جذع شجرة، أدار بصره حوله فشاهد العشرات هيئاتهم تدل على البدائية، وكلهم بذات الصبغة التي على وجه صاحب العينين الجاحظتين، يحمِلون في أيديهم الرماح والحجارة.. ما هذا المكان ومَن هؤلاء؟

نظر إلى يساره فشاهد (سيف) مَرْبُوطًا على شجرة بجواره، ورأسه يتدلَّى على كتفيه.. بدا له غائبًا عن الوعي، نادى عليه بلهفةٍ:

ـ سيف.. سيف.

لم يتحرك سيف، فأدرك أنه غائب عن الوعي، ومربوط من كتفيه لقدميه بالحبال،

جاءه صوت صاحب العينين الجاحظتين كالرعد، حين قال:

ـ ما الذي جاء بكما هنا؟

رد عليه (أكرم) فزِعًا:

ـ جئنا للتخييم.

قال له الآخر بصوت مرعب:

ـ لا أحد يدخل «سينتينل».

رجف (أكرم) وقال:

ـ ماذا؟ ما «سينتينل»؟ نحن في المعمورة..

ثم ابتلع لعابه، وأردف:

ـ ونأتيها كل عام.

صرخ صاحب العينين:

ـ لا أحد يدخل «سينتينل» ويخرج منها.. هي لنا أيها الغرباء.

تطلع له (أكرم) في ذهول.. فهو لا يفهم ما يقول هذا المجنون.

لم يمهله ليدرك الكثير حتى أشار إلى رفقائه، فجاء ثلاثة منهم بسرعة وفي أيديهم السهام، وصوَّب ثلاثتهم عليه، يريدون قتله، فأعينهم لا تكذب، وفي ثانية شعر بثلاثة أسهم تخترق جسده، وأحس بغصة في حلقه، ولم يدرك شيئًا بعدها.

استيقظ (سيف) فشاهد موضع فراش (أكرم) فَارِغًا وبه آثار دماء، أصابه الفزع والخوف وهو ينادي صديقه:

ـ (أكرم).. (أكرم)..

فلم يرد عليه أحد، أخذ يقلب في الفراش المغطى ببقع الدماء، فوجد مقال مقتطَع من صحيفة كُتب فيها «جزيرة (سينتينل) الشمالية، الهندية، إحدى بقاع الأرض الأكثر سحرًا وجاذبية، تقع في خليج البنغال، وسط المحيط الهندي.. سكانها الأصليين عزَلوا أنفسهم عن العالم تمامًا، وحتى عن مظاهر التقدم التكنولوجي، والحياة الحديثة على الإطلاق، لا يَقبلون بدخول الغرباء ابدًا، ويقتلون كل من يحاول استكشافها أو الاقتراب منها، وأنباء عن اختفاء مغامر آخر اتجه إليها منذ يومين مغربيّ الجنسية يُدعى (أكرم)».